الجذوة الشعرية الفلسطينية بعد النكبة

بقلم ابراهيم أبو ناب

يدخل في روع البعض حينما يكون الحديث عن ادب النكبة ان الحديث انما هو عن الادب الفلسطيني . والواقع انه اذا كان الادب الفلسطيني هو رأس الرمح في ادب النكبة ، فليس ادب النكبة كله فلسطينيا . والقول بأن الادب الفلسطيني هو ادب النكبة وان الفلسطينيين وحدهم مطالبون بانتاج ادب النكبة انما يتجاهل او يجهل اهم حقيقة موضوعية ، وهي ان فلسطين مهما كانت حدودها السياسية انما هي جزء لا ينجزأ من الوطن العربي الاكبر ، وان الشعب العربي الفلسطيني انما هو جزء او قطعة من النسيج الاجتماعي والثقافي للامة العربية .

واذا كانت الحياة العربية كلها سياسة واجتماعا وثقافة قد تأثرت الى ابعد الحدود بقضية فلسطين ونكبة فلسطين ، فليس من المعقول الا يتأثر الادب وهو الذي يستمد عناصره من تلك الحياة . وعلى هذا فمن الممكن تسمية الادب العربي كله الذي انتج بعد النكبة او احسن ما انتج منه على الاقل بأنه ادب النكبة ، وان لم يكن ذلك الادب يعالج قضية فلسطين بالذات او يستمد موضوعاته منها . ذلك ان معالم الحياة العربية كلها قد اخذت تتخذ مجرى جديدا لها بعد نكبة فلسطين. ولما كان الادب من نسيج الحياة ذاتها فانه لذلك لا يمكن فهمه او حتى العثور عليه معزولا عن المجتمع الذي ينبت فيه .

كانت نكبة فلسطين بمثابة هزة عنيفة للمجتمع العربي والنظم القائمة فيه وللحياة الفكرية والوجدان القومي . وكانت النظم السياسية هي اولى ضحايا هذه الهزة فراحت تتساقط بالانقلابات العسكرية وبالثورات ، وتعرضت كلها لرياح التغيير العاصفة التي كانت تهب في رغبات الجماهير العربية . ثم تعرضت النظم الاقتصادية والاجتماعية لاصداء تلك الهزة التي اخذت تسري في صميم الكيان العربي . وراح العرب يبحثون عن الوسائل الجديدة في مواجهة التحدي الجديد حيث ادركوا انه لا بد لهم من مفاهيم وقيم جديدة تقرب من العدل والواقع وتجتاز ما هو كائن الى ما يجب ان يكون . ولقد سرت هذه الثورة الى صميم الادب ... الى موضوعاته .. الى شكله .. الى مضمونه والى طريقة انفتاحه على الحياة .

الا يمكن القول ان الادب في عهد ما بعد النكبة قد اسبولى على وظائف جديدة حين بدأ ينزل من القصور الى الشوارع ، ومن ايدي القلة الخاصة التي كانت تتزين به وتتمق به حياتها الى ايدي الاغلبية التي تريد ان تفهم به حياتها وان تستعين به وتستلهمه الامل الذي يعينها على المضي والاستمرار ؟ الم نشهد في عهد ما بعد النكبة مولد ما يسمى بالشعر الحديث او الشعر الحر . فالذين قاموا في مجالات السياسة والاقتصاد يهدمون الهياكل القائمة التي لم تعد تصلح لهذا الزمن ولم تعد تتجاوب مع حاجات الامة ، قاموا يهدمون ايضا هياكل القصيدة والقصة والمقال ليقيموا مكانها اشكالا تصلح لحمل المضامين الجديدة.

ليس من الضروري اذن ان يكون ادب النكبة هو الادب الفلسطيني او ان يستوحي موضوعاته من فلسطين بالذات . ولا احسب الا ان هذه الحقيقة موجودة في وعي الادباء العرب وان لم يعيروها ما تستحقه من تمحيص وابراز . يقول الاديب المصري الاستاذ ابراهيم شعراوي :«وهناك صفات كثيرة مشتركة بين الشعر الحر وبين قضية فلسطين . فهذا الجو القاتم الذي احاط قضية فلسطين بحزن عميق مرير هو نفس الطابع الحزين الذي يلاحظه لاول مرة كل من درس الشعر الحر في ابداعات صلاح عبد الصبور (الناس في بلادي) والبياتي (اباريق مهشمة) وغيرهما . فهذا صلاح ينشد : « يا صاحبي اني حزين ـ طلع الصباح فما ابتسمت ولم ينر وجهي الصباح » ويقول : « هذا زمن الحق الضائع ـ لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله ـ ورؤوس الناس على جثث الحيوانات ورؤوس الحيوانات على جثث الناس ـ فتحسس رأسك ـ تحسس رأسك » .

على ان الدارج بين الادباء هو الاشارة الى ادب النكبة مفترضين ضمنا انه الادب الفلسطيني او الذي يستمد موضوعاته من فلسطين . وهم قد ضيقوا هذه الدائرة الى الحد الذي اصبح من الممكن معه اعتبار ذلك الادب الذي يشيرون اليه النكبة ذاتها ! فهو خطابي مباشر تقريري يحاول ان « يستنهض الهمم » و « يلعن الاستعمار » و « ربيبته اسرائيل » الى اخر مما هنالك من الاكليشهات النكبوية !

والحق ان هذا النوع من الادب النكبوي ـ ان كان ادبا ـ لا يحتكره الفلسطينيون وليس مقصورا عليهم . وانما هو يعيش مع طبقة من الادباء والشعراء العرب التي ما زالت تعيش بعقلية ما قبل النكبة وهذه الطبقة فيها فلسطينيون وغير فلسطينيين . سمهم رجعيين اذا شئت . ولكنهم يعتبرون انفسهم ثوارا تقدميين لا لشيء الا لانهم يدعون الى الثورة وان كانوا يمارسونها في ادبهم مثلهم في ذلك مثل طبقة السياسيين الذين يعيشون بنفس عقلية ما قبل النكبة ويسمون انفسهم في هذه الايام ثوارا وهم ابعد ما يكونون عن الثورية ! هؤلاء هم تجار الادب في النكبة مثلهم مثل تجار السياسة . وقد حملهم حب الشهرة المنبرية والوجاهة الادبية على ان يدلوا بدلائهم في كل موضوع فلسطيني .

فهذا فلسطيني يقول :

عائدون عائدون اننا لعائدون
والحدود لن تكون والقلاع والحصون
فاصرخوا يا نازحون اننا لعائدون

وهذا لبناني مهجري هو ايليا ابو ماضي يقول :

الا ليت « بلفور » اعطاكمو بلادا له لا بلادا لنا
« فلندن » ارحب من « قدسنا » وانتم احب الى « لندنا »
نصحناكمو فارعووا وانبذوا « بليفور » ذيالك الارعنا

وهذا مصري هو علي محمود طه يقول :

فلسطين تحميك منا الصدور فاما الحياة واما الردى

ومع ان كل هؤلاء شعراء مرموقين الا ان شعرهم هذا دفع بحق احد النقاد لان يتساءل ان كان هذا شعرا ام فاصوليا ! هذا مع ان هذا « الشعر » قد تحول الى اناشيد وطنية يحفظها الطلاب في المدارس وتفتتح بها الاذاعات ويغنيه المطرب محمد عبد الوهاب ويلجأ اليه كثير من الادباء للاستشهاد به حينما يطلب اليهم كتابة موضوع عن النكبة !

ولكن هذا هو ايضا الذي يدفع بعض الادباء الى التساؤل : اين الادب الفلسطيني الذي يرتفع من حيث الاثر الى مستوى النكبة ؟ فالفلسطينيون هم الذين تأثروا بها اكثر من غيرهم وهم الذين تشردوا، وهم الذين اجتثوا من اراضيهم وبيوتهم ، وهم الذين ذاقوا ما لم يذقه غيرهم . ولما كنت ارجو في مقالي هذا ان اكشف ما يتسنى لي كشفه من الجذوة الشعرية الفلسطينية ، فان هذا البحث لا بد من ان تضيق فيه الدائرة كثيرا للفصل اولا بين ما هو شعر وبين ما ليس بشعر ، ومن ثم بين ما هو شعر فلسطيني وبين ما ليس بشعر فلسطيني . ولا بد في هذا المجال من الرجوع الى الحياة ذاتها التي يستمد منها هذا الشعر عناصره لكي يكون كذلك .

لعل من غير الانصاف للحقيقة ان يوصف كل شعر فلسطيني بانه شعر النكبة او ان يكون كل شاعر فلسطيني شاعر نكبة باعتبار ان النكبة قد هزت المجتمع العربي كله من اساسه فاثرت على كل شاعر فيه تاثيرا مباشرا او غير مباشر . ولقد يكون تأثر سورية بالنكبة مثلا يساوي في نوعيته تأثر الجزء الباقي من فلسطين . فكيف يصح ان يكون شاعر من اريحا او من رام الله شاعر نكبة بينما لا يكون كذلك شاعر من السويداء او دمشق ؟ واذا افترضنا ان شعر النكبة هو شعر الاكليشهات التي تشير الى فلسطين مثل « فلسطين تفديك منا الصدور » فليس ذلك مقصورا على الفلسطينيين وحدهم كما بينا .

غير ان الشعر الفلسطيني ـ الذي هو شعر وفلسطيني ـ لا بد وان يعيش فيه القارىء النكبة ذاتها بكل ابعادها لا ان يقرأ عنها. وعلى ذلك فلا بد ان يكون هذا الشعر من مستوى النكبة تتجلى فيه ردة فعلها بل وسلسلة رد الافعال النفسية من حزن وشجاعة ويأس وامل وصبر ونفاد صبر . فان من غير المعقول منطقيا ان يكون هنالك شعب وله لغة تدون ولا يكون له ادب الا ان يكون ميتا . وكذلك من غير المعقول ان يستمد ادبه من الفراغ او من شيء لا يعيشه .

ولو كلف الادباء الكبار الذين يتساءلون اين الادب الفلسطيني الذي يرتفع من حيث الاثر الى مستوى النكبة الفلسطينية ، لو كلفوا انفسهم مؤونة التفكير المنطقي اولا ثم البحث عن ذلك الادب ثانيا لوجدوه. ذلك انه لا يكفي لرؤية هذا الادب الحصول عليه بالطريقة الدارجة حيث تؤخذ مطبوعات بعض من اشتهر وتجري عليها الدراسات بدون باقي الاعتبارات. هذا في الوقت الذي نعرف فيه جميعا ان دور النشر عندنا لا تقوم بنصف مهمة الكاتب كما تقوم دور النشر في الدول المتقدمة حيث تقوم بمهمة التفكير المنطقي ثم بتكليف الباحثين بالبحث لكي تقدم الى القراء ما هم في حاجة الى معرفته او ما يجب عليهم الاطلاع عليه .

وقبل المضي الان في هذه المهمة التي انا بصددها وهي اكتشاف الجذوة الشعرية الفلسطينية بعد النكبة ، احب اولا ان يتم الاتفاق على ما هو الشعر لكي نمضي الى الشعر الفلسطيني . واذا استطعنا ان نربط الشعر بالمجتمع او ان نكتشف الرابطة التي بين الشعر والمجتمع لتجنبنا ان نقع في مزالق من يقولون ان تعريف الشعر امر صعب .

سئلت مرة اميلي ديكنسون ان تعرف الشعر فقالت انها لا تستطيع تعريفه ولكنها تعرفه حينما تقرأه من الاثار الجسمانية التي يتركها فيها اذ تحس بخدر في رأسها واعضائها . وقد وجد شوقي الامر عليه اسهل مما وجدته اميلي ديكنسون فقال :

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة او حكمة فهو تقطيع واوزان

والشعر قد يكون ذكرى وقد يكون عاطفة وحكمة ، ولكن ما لا شك فيه عندي ان هذا البيت لشوقي ليس شعرا لانك اذا جردته من رصفه الموسيقي وتقطيع الاوزان لصار كما يلي : اذا لم يكن الشعر ذكرى وعاطفة او حكمة فهو مجرد اوزان ... وهذا الكلام لا يترك خدرا في الرأس ولا في الاعضاء !

لعل الشعر ليس ذلك الذي يتكلم عن الاشياء او عن العواطف بل هو الاشياء ذاتها والعواطف ذاتها . وهنا يختلف الشعر عن التاريخ ، فالتاريخ فيه ذكرى ، فهل يكون على رأي شوقي شعرا ؟ حتى ولو نظم في القصائد العمودية ! والفلسفة فيها حكمة فهل تكون شعرا ؟

والشاعر هو فنان وسيلته الكلمات يتناول منها ما يحدث لدى القارىء او السامع نفس الاثر الشعوري الذي حدث عنده . وبقدر ما يكون مخلصا مع ذاته وبقدر ما يكون قادرا على اختيار الكلمات المطلوبة، يستطيع ان ينقل الاثر في نفسه الى نفس القارىء او السامع . على ان القارىء ليس طرفا ساكنا في الموضوع ، اذ ان له دورا فاعلا فيه فاذا لم يكن الشاعر يغرف من معين انساني مشترك فانه لن يجد صدى لدى القارىء . هذا المعين المشترك هو في رأيي التجربة التي يخوضها المجتمع باسره . وانما يكون الشاعر بارهافه الحسي بمثابة النبي الذي يتخير اوتاره ليعزف عليها نشيده الذي تستجيب له الضمائر والقلوب .

المجتمع هو مفتاح السر . ما اردنا نقول الا معادا او معارا من قولنا مكرورا . فلعل الشعراء في محصلة العواطف الانسانية لا يأتون بجديد ، فاليأس هو اليأس منذ عهد شكسبير ، والحب هو الحب منذ عهد قيس بن الملوح ، والحزن هو الحزن والشجاعة هي الشجاعة والموت هو الموت .. ولكن الذي يتغير هو المجتمع ، ولكل مجتمع حبه وحزنه ويأسه وشجاعته وامله واحلامه وآلامه .

الغربة او الضياع شيء عالمي ولقد يحس بهذه الغربة شخص من مانشستر جاء الى لندن او شخص سكن لندن طيلة حياته ، ولكن هذه الغربة ليست كغربة سالم جبران في فلسطين المحتلة حينما يذهب الى مدينة صفد العربية فيجدها وقد امتلأت باليهود .

غريب انا يا صفد ؟
وانت غريبه
تقول البيوت : هلا
ويأمرني ساكنوها : ابتعد
علام تجوب الشوارع
يا عربي علاما ؟
اذا ما طرحت السلام
فلا من يرد السلاما
لقد كان اهلك يوما هنا ..
وراحوا فلم يبق منهم احد .

***

على شفتي جنازة صبح
وفي مقلتي
مرارة ذل الاسد
وداعا ،
وداعا صفد !

لقد طبق الشاعر في هذه القصيدة الوصية السادسة من الوصايا الخمس عشرة التي كتبها احد الشعراء في المنطقة المحتلة من فلسطين حيث قال : « لا تسرفوا في البيان ، ولا تطنبوا في بث لواعج النفس فان من افصح الكلام الوقف ومن ابلغ المعاني الاشارة بل السكوت » . وشاعر صفد يعطينا في غير ما اطناب او اسراف او مبالغة صورة عربي يدخل مدينة صفد ويخرج منها كاسفا اذ ليس من يرد السلام . وهو عندما يقف بعد « وداعا صفد » فلقد بلغ قمة البلاغة عند وقوفه .

اين من هذا الكلام وهذه الصورة البالغة الاثر كلام الشاعر الذي قال :

هذي المشاعل في الشطوط مشاعلي
والساحل الوضاء ذلك ساحلي
هي من فؤادي تستمد زيوتها
وضياءها من بسمتي وتفاؤلي

الفرق بينهما ان احدهما يعطيك صورة صادقة للحزن والثاني وهو فلسطيني يعطيك صورة مزيفة له . فالمشاعل في الشطوط والساحل الوضاء والضياء والبسمة والتفاؤل مع هذه النبرة الادعائية والموسيقى الحماسية .. هل تصلح كل هذه لشخص فقد وطنه ؟

ما دام مفتاحنا هو المجتمع ، فلنرجع الى المجتمع الفلسطيني قبل

النكبة وبعدها ، غير ناسين او متناسين انه قطعة متناسجة مع المجتمع العربي كله .

كان شعراء فلسطين قبل النكبة ابناء تركيب اجتماعي فلسطيني قديم متوارث منذ قرون عديدة . وهو لم يتأثر الا في سطحه بالانتداب البريطاني الذي لم يحاول تغيير التركيب الاجتماعي من اساسه او تغيير مواقع الطبقات فيه. فاحتفظت الاسر الكبرى باراضيها واقطاعياتها ومراكزها الاجتماعية . وبقي الفلاحون على حالهم وكذلك البدو .ولكن ظهرت طبقة جديدة من الموظفين التي كانت تمثل الانلجنسيا في البلاد والتي كان يستعين بها الانتداب على تسيير جهاز الادارة والتعليم.كان هؤلاء في بادىء الامر مستمدين من الطبقة الوسطى في المدن ثم اتسع نطاق هذه الطبقة حتى صارت تسترفد من معظم الطبقات في البلاد . وكان الشعراء في غالبيتهم العظمى من طبقة الموظفين .

وفي مثل هذا المجتمع كان الشعر يبحث عن وظيفة فلا يجدها اللهم الا في المواقف الخطابية والمناسبات الوطنية التي تحدم تطلعات هذه الطبقة من الناس . فلقد كانت المناسبة تخدم الشاعر اكثر مما كان الشاعر يخدم المناسبة . ولقد ظل الشعر العربي القديم وشعر ما يسمى بعصر النهضة يشكلان المصادر الروحية للشعر . ومع ازدياد حدة التحدي الصهيوني والاستعماري ازداد اهتمام الناس بالشعر الوطني او الشعر السياسي الذي كان عموديا مقفى تقريريا سهل الحفظ.وقد لمع عدد من شعراء هذا الاسلوب حتى لقد تجاوبوا فعلا مع المرحلة السياسية التي كانت تمر فيها البلاد وكان عزم الشعر على قدر عزم الثقافة العربيه عموما . كان ابرز هؤلاء المرحوم ابراهيم طوقان صاحب « الثلاثاء الحمراء » التي عنى فيها ثلاثة من الثوار الفلسطينيين الذين شنقهم الانجليز فكان كل منهم يرجو رفيقيه ان يتقدم عليهما الى حبل المشنقة . ولم يترك ابراهيم طوقان ناحية من النواحي السياسية الا وخاض فيها بشعره .

حبذا لو يصوم منا زعيم مثل غاندي عسى يفيد صيامه

***

اما سماسرة البلاد فعصبة عار على اهل البلاد بقاؤها

***

فكر بموتك في ارض نشأت بها واترك لقبرك ارضا طولها باع

***

ان قلبي لبلادي لا لحزب او زعيم

***

أجلاء عن البلاد تريدون ، فنجلو ، أم محقنا والازاله

***

امامك ايها العربي يوم تشيب لهوله سود النواصي فلا رحب القصور غدا بباق لساكنها ولا ضيق الخصاص

ولقد ارتفع ابراهيم طوقان في رؤيته الى ذروة الرؤية السياسية بحيث ان ما حذر منه قد تحقق . ولكن لم يكن كل شعراء فلسطين ابراهيم طوقان من حيث هذه الجودة في هذا اللون من الشعر .

وهذه الطبقة من الشعراء الموظفين على اي حال قد وجدت للشعر وظيفة افضل من الوظيفة التي كانت الاسر الاقطاعية الكبيرة توظفه اياها ابان العهد التركي والتي كانت مهمتها جمع الضرائب للسلطان وحماية نظامه . فهذا الشيخ سليمان التاجي الفاروقي يخاطب السلطان التركي محمد رشاد بقوله :

« العرب ، لا شقيت في عهدك العرب
سيوف ملكك والاقلام والكتب
سياج دولتك الغرا ، ومعقلها
والثابتون ، وحبل الامن مضطرب
هم الجبال ، فما حملتهم حملوا
لكن اذا سمتهم ضيم النفوس ابوا

على ان هذا النوع من الشعر ـ ان كان شعرا ـ والذي وجد له وظيفة ايام الحكم التركي ووظيفة اخرى ابان الانتداب البريطاني ما لبث ان وجد نفسه عاجزا عن التعبير امام وقع النكبه المذهل. فالكيان الاجتماعي الذي كان سائدا قد انهار انهيارا كاملا وغادر مئات الالوف من الناس بيوتهم وارضهم الى خيام معسكرات اللاجئين والى البلدان العربية الاخرى . وتفرق من بقي على قيد الحياة من شعراء الكيان الاجتماعي الفلسطيني السابق في البلاد العربية يبحثون عن الوظائف والاستقرار من جديد . وظل هؤلاء سدنة المناسبات الخطابية الشعرية الخاصة بفلسطين ينظمون في مناسبات وعد بلفور وذكرى التقسيم والخامس عشر من ايار وعند افتتاح كل مدرسة يدعون الى حفل افتتاحها حتى لقد غمروا السوق بالانتاج النكبوي !

ولكننا نستطيع ان نتخطى هؤلاء الى مجموعة اخرى من الشعراء الفلسطينيين التي تبلور شعرها في المنفى واخذت تسلك في الشعر مسلكا اكثر انسجاما مع مفهوم الشعر الحديث من حيث الشكل والمضمون واستعمال الكلمة . الا انه يصعب احيانا التمييز بين هؤلاء وبين غيرهم من الشعراء العرب الذين يخضعون لنفس الظروف المعيشية والثقافية . اذ ان هذه المجموعة التي نشأت وترعرعت في المنافي العربية قد الفت مواطنها الجديدة وتشابكت حياتها فيها وتناسجت معها وشاركت في صراعاتها واصبح من الصعب مثلا التمييز بين شاعر فلسطيني شاب يعيش في سوريا وشاعر سوري شاب او شاعر فلسطيني شاب يعيش في العراق وشاعر عراقي شاب . اننا لا نستطيع ان نتجاهل بأي حال المجتمع الذي يعيش فيه الشاعر ويأخذ منه ويعطيه.

اين نجد الشعر الفلسطيني الحديث اذن ؟ ثلاث صفات نريدها فيه : ان يكون شعرا .. وان يكون فلسطينيا .. وان يكون حديثا .وانا اعني بفلسطيني هنا هو ان تجتمع له نكهة فلسطين وارضها وسماؤها وآلامها وان تنعكس عليه فلسطين بما هي عليه . الحب في فلسطين... استمع الى الشاعر محمود درويش الموجود في ارضنا المغتصبة يخاطب حبيبته فيقول :

كمقابر الشهداء صمتك
والطريق الى امتداد ..
ويداك .. اذكر طائرين
يحومان على فؤادي
فدعي مخاض البرق
للافق المعبأ بالسواد
وتوقعي قبلا مدماة
ويوما دون زاد
وتعودي ، ما دمت لي
موتي .. واحزان الحداد

ويقول في مكان اخر :

كلامك كان اغنيه
وكنت احاول الانشاد
ولكن الشقاء احاط بالشفة الربيعيه
كلامك ، كالسنونو ، طار من بيتي
فهاجر باب منزلنا ، وعتبتنا الخريفيه
وراءك ... حيث شاء الشوق ...
وانكسرت مرايانا
فصار الحزن الفين
وملمنا شظايا الصوت ..
لم نتقن سوى مرثية الوطن !
سنزرعها معا في صدر قيثار
وفوق سطوح نكبتنا سنعزفها
لاقمار مشوهة واحجار .
ولكني نسيت .. نسيت يا مجهولة الصوت :
رحيلك اصدأ القيثار ، ام صمتي .

لعل الشعر الفلسطيني الحقيقي هو اليوم في الارض المحتلة من فلسطين . هنالك حيث غادرها الشعراء القدامى وبقيت بذور الشعر

مع الناس الذين بقوا هناك فضربت تلك البذور جذورها في ارض المجتمع الذي بقي هناك ثم نمت واينعت في حرارة شمس التحدي .

كيف امسك شعراؤنا هناك براية الشعر المنهارة وسط زحمة الهزيمة والفرار ؟ لماذا صار الشعر عندهم زادا اكثر ضرورة من الخبز؟ كيف ارتبط الشعر بالقضايا الاساسية للشعب العربي هناك ؟ كيف استنبته الشعراء من ضمائر الناس وشدوه الى اوداج الحياة وعزفوا عليه اغنيات احلى من اغاني الام تهدهد وليدها ؟ لكي نعرف كل ذلك لا بد لنا من الرجوع الى المجتمع العربي الفلسطيني في المنطقة المحتلة من فلسطين . فمن هم هؤلاء الناس الذين ظلوا هناك وكيف يعيشون وكيف يواجهون التحدي الصهيوني الذي عمل على تقويض كيانهم القومي والذي يعمل على اجتثاث جذورهم الحضارية من عقولهم ؟

يقول الشاعر سميح القاسم في قصيدته « الجواد الجامح » :

« فكيف نفر ؟ كيف نفر من منبتنا الارضي ؟
وكيف نبيح للنسيان اجيالا من البغض ؟
وكيف ؟ وكيف ؟ لن نهدأ !
وملء عيوننا المرفأ
ونار جبيننا المشجوج .. لن تطفأ
بغير ضمادك الرحمن .. يا ايفاع احرفنا
ويا رؤيا ملهفنا !
ويا تاريخنا المنهوب
يا قاتلي المحبوب
يا موطننا الجارح !
فحتى الموت ! حتى الموت !
يبقى فارس الاحزان
عبد جوادك الجامح !!

***

يدعي الصهيونيون في العالم الخارجي بأن العرب قد تركوا بلادهم ورحلوا عنها بناء على اوامر صدرت اليهم من الدول العربية ومن الزعماء العرب . ولكن هذه الدعوى باطلة بدليل انهم بدأوا يكشفون مؤخرا عن اساليب الحرب النفسية التي استخدموها بعد ان خططوا لها باحكام لحمل كل العرب في فلسطين على الهجرة . ذلك ان بقاء العرب في اراضيهم وقراهم ومدنهم كان من شأنه ان يخلق للدولة التي اراد اليهود انشاءها مشاكل لا اول لها ولا اخر . فاليهود كانوا وما زالوا يعملون على الاستيلاء على كل الارض واجتثاث اهلها منها واحلال اليهود مكانهم . ولقد نجح الصهيونيون في عمليات اشهرها دير ياسين في تنفيذ خططهم بالتعاون مع الدول الاستعمارية ففادر العرب ديارهم في ابشع عملية اضطهادية اجرامية . ولم يبق في الارض المغتصبة الا الذين بلغ بهم الفقر حدا لم يساعدهم على الانتقال من اهل المدن وبعض عشائر البدو في الجنوب وسكان القرى العربية التي سلمت لليهود مع اراضيها بموجب معاهدة رودس .

ولئن كان هنالك من فروق بسيطة بين احوال الطبقات الاجتماعية الفقيرة التي بقيت في فلسطين المحتلة ، فان سياسة « الدولة » تجاه كل العرب كانت كفيلة لتسويتها وصهرهم كلهم في بوتقة واحدة يخضعون فيها لنفس قوانين التعسف والطرد من الاراضي والحرمان من التعليم واخضاعهم لاجور ادنى بكثير من اجور العمال اليهود . فلقد كانت سياسة الدولة اليهودية باختصار تعمل على جعل العرب في اسرائيل عنصرا مسخرا لخدمة العنصر اليهودي بكل ما يحتوي ذلك من تمييز . ولتحقيق هذه الغاية قسمت المناطق العربية الى مناطق تخضع للحكم العسكري لا يستطيع العربي ان ينتقل من قرية الى مدينة الا باذن عسكري خاص خاضع لمراقبة « الشين بيت » وهو قسم المباحث . وانتزعت جميع الاوقاف الاسلامية ووضعت تحت ادارة خاضعة لمراقبة الدولة تستغلها لمصلحة العنصر الجديد . وراحت « الدولة » تستملك الاراضي التي تراها مناسبة لانشاء المستعمرات والمدن اليهودية وتفرض على اصحاب الاراضي قبول تعويضات اسمية ترتئيها السلطات الاسرائيلية دون ان يكون للعرب حق رفض التخلي عن اراضيهم . وعمد اليهود الى جعل الاقبال على العلم بين العرب تجارة غير رابحه اذ لا يجد خريجو المدارس او الكليات الفرص امامهم للعمل .. هذا بالاضافه الى ارتفاع تكاليف التعليم للعرب وانخفاضها لليهود . فالطالب اليهودي الذي يريد الالتحاق بالجامعة يجد امامه مجالات لا حصر لها لتوفير النفقات اللازمة له من منح دراسية واعمال بينما لا يجد الطالب العربي شيئا من ذلك .

وقد اضطر ابناء القرى الذين كانوا يتركون قراهم فيما مضى للالتحاق بمدارس المدن ، اضطروا الى هجر قراهم للعمل في تعبيد الطرق وكعمال في البيارات واعمال البناء والاعمال الاخرى التي لا يقبل عليها اليهود . نقرأ في احدى الجرائد التي تصدر في اسرائيل الرسالة التالية :

« انا طه قاسم من عرب السواعد اسكن في احد الاسطبلات المشهورة في نحلات اسحق من سنة ١٩٦٠ الى سنة ١٩٦٥ عند احد المؤجرين لهذه الاسطبلات التي كانت اماكن نوم للبقر . ويدعى صاحب الاسطبل «شوني» وكان يعاملنا معاملة سيئة ، فعندما يأتي احد الاصدقاء لزيارتنا ينزعج ويهدد بطردنا من اماكن نومنا . واكثر من هذا لا يسمح لنا خلال ايام الاسبوع بمطالعة الصحف والمجلات بحجة ان هذا العمل يؤدي الى خسارة كبيرة في الكهرباء . وفي احد الايام دخل صديق لي ليشرب كأسا من الماء فثارت اعصاب شوني وبدأ يعربد ويشتم. وعندما استنكرت اعماله البربرية التي يعاملنا بها طلب مني ان اخرج من الاسطبل رغم المدة الطويلة التي سكنتها عنده فرفضت الخروج لان هذا من حقي وطلبت منه ان يمهلني المدة القانونية حتى اجد مكانا اخر فهدد بطرد جميع سكان الاسطبل وعددهم خمسة عشر اذا لم اخرج انا . ففضلت الخروج حتى لا يجد مبررا لطردنا كلنا . وانني انشر هذه الرسالة ليطلع الرأي العام على مدى ما وصلت اليه سياسة التحريض حتى في هذه الاماكن غير الانسانية » .

ولكن كيف يواجه الشعب العربي هناك هذا التحدي ؟ اذا كانت مهمة الشاعر ان ينطق الشعب الاخرس وان يصنع له الامل فلقد فعل ذلك الشاعر سميح القاسم في قصيدته « خطاب من سوق البطالة » :

ربما افقد ـ ما شئت ـ معاشي
ربما اعرض للبيع ثيابي وفراشي
ربما اعمل حجارا ..
وعتالا ..
وكناس شوارع !
ربما اخدم في سود المصانع
ربما ابحث ـ في روث المواشي ـ عن حبوب
ربما اخمد .. عريانا .. وجائع
يا عدو الشمس .. لكن .. لن اساوم
والى اخر نبض في عروقي ... ساقاوم

***

ربما تسلبني اخر شبر من ترابي
ربما تطعم للسجن شبابي
ربما تسطو على ميراث جدي
من اثاث ..
واوان ..
وخوابي ..
ربما تحرق اشعاري وكتبي
ربما تطعم لحمي للكلاب !
ربما تبقي على قريتنا .. كابوس رعب
يا عدو الشمس .. لكن .. لن اساوم
والى اخر نبض في عروقي
ساقاوم !

ـ التتمة على الصفحة ١٢٦ ـ

الجذوة الشعرية الفلسطينية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٨٥ ـ

ربما تطفىء في ليلي شعله
ربما احرم من امي قبله
ربما يشتم شعبي وابي طفلا وطفله
ربما تفنم من ناطور احزاني غفله
ربما زيف تاريخي جبان
وخرافي مؤله
ربما تحرم اطفالي يوم العيد بدله
ربما تخدع اصحابي .. بوجه مستعار
ربما ترفع من حولي
جدارا
وجدارا
وجدار
ربما تصلب ايامي على رؤيا مذله !
يا عدو الشمس .. لكن .. لن اساوم
والى اخر نبض مني عروقي
ساقاوم ...

اما سكان المدن من العرب فقد حشروا في احياء معزولة كاحياء الغيتو التي كان يسكنها اليهود في اوروبا . وتتعرض هذه الاحياء لشرور اكثر من تلك التي كان يتعرض لها سكان الغيتو اليهود. فقد نشرت مجلة نيوزويك الاميركية في سبتمبر عام ١٩٦٥ وصفا للهجوم الجماهيري اليهودي على الحي العربي في مدينة الرملة اثر تشييع جثمان شاب يهودي بعد ان مات في حادث اصطدام مع سيارة يقودها عربي فقالت المجلة :

« كان الجمهور غاضبا يغلي بالحقد . واندفع في حمى كراهيته الى الحي العربي يحطم الدكاكين ويضرب الشيوخ والاطفال بالعصي والحجارة وهو يصيح : « اقتلوهم ، اقتلوهم » . وكانت الاسر العربية تتجمع مع بعضها وراء النوافذ في خوف وهلع . كان المنظر شبيها بالفتن التي كانت تقوم بها جماعات السكارى الفاضبة في احياء الغيتو اليهودية في اوروبا . الا ان الفارق هو ان المهاجمين هم اليهود في هذه المرة واما سكان الغيتو فهم العرب » .

انك لا تستطيع في مثل هذه الاحوال ان تطلب من الشعر ان يكون ميتافيزيقيا يرنو الى وراء الطبيعة . ولكن لكي يكون شعرا لا بد أن يتخطى الواقع من خلال رسمه للواقع ليفسر الشاعر هذه الاشياء كما تنعكس على صفحة ضميره . وهنا يتقدم الشاعر توفيق زيادة في قصيدته « على صدور مضطهدينا » فيقول :

كاننا عشرون مستحيل
في اللد والرملة والجليل
هنا على صدوركم ، باقون كالجدار
وفي حلوقكم ،
كقطعة الزجاج ، كالصبار
وفي عيونكم ،
زوبعة من نار
هنا على صدوركم ، باقون كالجدار
ننظف الصحون في الحانات
ونملأ الكؤوس للسادات
ونمسح البلاط في المطابخ السوداء
حتى نسل لقمة الصغار
من بين انيابكم الزرقاء
هنا على صدوركم باقون كالجدار
نجوع ..
نعرى ..
نتحدى ...
ننشد الاشعار ،
ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات
ونملأ السجون كبرياء
ونصنع الاطفال جيلا ناقما ..
وراء جيل
انا هنا باقون
فلتشربوا البحرا
نحرس ظل التين والزيتون
ونزرع الافكار كالخمير في العجين
برودة الجليد في اعصابنا
وفي قلوبنا جهنم حمرا
اذا عطشنا نعصر الصخرا
ونأكل التراب ان جمنا
ولا نرحل
وبالدم الزكي لا نبخل .. لا نبخل
هنا لنا ماض وحاضر ومستقبل
يا جذرنا الحي تشبث
واضربي في القاع يا اصول

***

افضل ان يراجع المضطهد الحساب
من قبل ان ينفتل الدولاب
« لكل فعل ... » اقراوا
ما جاء في الكتاب

لقد يتساءل متسائل فيقول : اين الرؤية الخاصة في هذا الشعر حيث أن الشعر الحديث يتميز بالرؤية الخاصة التي تصدر عن ذات الشاعر . ولقد يدعو الى هذا التساؤل ما نراه في هذا الشعر من نفس يكاد يكون متشابها بين مختلف الشعراء ومن نبن للقضايا العامة.

ولعل ان هذا هو ما يميز الشعر الفلسطيني في المنطقة المحتلة من فلسطين . غير أن هذا الذي يبدو وكأنه ينطق باسم الجماعة انما هو ذاتي . والذي حدث هو ان الشاعر لم ينفصل عن الجماعة، ولذلك فقد جاءت ذاتيته معبرة في صدق عميق عن احزان الناس في غير خور او انفعالية مصطنعة . كذلك فلقد بينا انصهار الناس في بوتقة واحدة تتعرض لنفس الضغوط والاضطهادات والمعاملة حتى كادوا ان يتحولوا الى طبقة واحدة هي الطبقة المسخرة المضطهدة المجتثة التي تجد مصيرها ووجودها في مهب الرياح . واصبح الحديث عن القضيةالشخصية والقضية العامة من نافلة القول اذ انهما صارتا قضية واحدة لا انفصال بينهما .

قد يصح ان يكون للشاعر قضية خاصة في مجتمع اخر متعدد الطبقات لا يخضع للظروف الاجتماعية التي يخضع لها المجتمع العربي الفلسطيني في المنطقة المحتلة من فلسطين . بل ان كثيرا من الشعراء في المجتمعات المختلفة في العصر الحديث يبحثون عن قضية وهم لذلك في ضياع . حزنهم ينشأ من انهم لا يعرفون ما يريدون ولا الى اين هم ذاهبون . وقد يفسر هذا الى حد بعيد الغموض في شعرهم الذي يرجع الى غموض القضية وعدم تبلورها . وهكذا يصبح شعرهم ميتافيزيقيا يصل الى درجة من الذاتية تبلغ حدود الانعزال ودعوة الناس الى بذل مزيد من الجهد للوصول الى العالم الخاص للشاعر .

المتاعب الحياتية وفرت على شعرائنا في الارض المحتلة الكثير من المتاعب الشعرية ، فلقد وجدوا انفسهم في غمرة ما هم فيه في حاجة ملحة الى الشعر . فالقضية متبلورة ولم يبق عليهم الا ان يجدوا الاسلوب الذي يغرفون به من المعين . ومن الطريف ان نقرأ وصاياهم

الخمس عشرة للوصول الى هذا الاسلوب اذ ان مهمتهم هي كتابة الشعر وليست الكتابة عن الشعر ، وهكذا فقد وضعوا في خمس عشرة وصية ما يمكن ان يوضع في كتاب :

١ ـ حرروا صناعتكم من « ففا نبك » و « سائق الاظعان » .. ان عندكم اليوم الطائرات لتسوقوا النجوم .

٢ ـ حرروا انفسكم من القيود التي تحول دون الابداع والتجديد ودون الصدق في الشعور والحرية في التفكير .

٣ ـ خذوا بيانكم ـ مجازاتكم واستعاراتكم ـ من لوح الوجود ومن الحياة لا من الكتب والدواوين .

٤ ـ ليكن في خيالكم حقائق كونية وبشرية وليشع في هذه الحقائق الخيال .

٥ ـ انظروا الى الكون من خلال انفسكم الشاعرة الباصرة ولا تنظروا الى انفسكم من خلال الاوهام . الشاعر صوت وما فيه سوى ذلك هو باطل وزائل .

٦ ـ لا تسرفوا في البيان ولا تطنبوا في بث لواعج النفس فان من افصح الكلام الوقف ومن ابلغ المعاني الاشارة بل السكوت .

٧ ـ حافظوا على التناسب والتوازن بين الصيغة والمعنى وبين القلب والروح . اذا كنتم طائرين مثلا فليكن القول خفيفا مجنحا . واذا كنتم متأملين او ناقمين فلتكن الامواج اللغوية من ذوب الحديد .

٨ ـ تجنبوا السخافة في الفكر والوصف وفي الصور الشعرية والخيال . ولا تسخروا القمر والشمس مثلا كما سخرهما قبلكم الف شاعر وشاعر .

٩ ـ لا تدخلوا المواضيع من الابواب التي دخلها قبلكم جميع الشعراء المقلدين فتتعثروا بعظامهم ولا تنجوا من قبورهم .

١٠ ـ ليكن لقصائدكم بداية ونهاية فلا تقرأ طردا وعكسيا على السواء .

١١ ـ لا تعصروا قلوبكم كأن تتعلموا رقة الشعور ، ولا تعقدوا افكاركم كأن تتعمدوا الغموض والابهام .

١٢ ـ تحروا البساطة والصدق والاخلاص فكرا وصناعة وخيالا .

١٣ ـ لا تنسوا وطنكم في حبكم الانساني ولا تنسوا الانسانية في نزعاتكم الوطنية .

١٤ ـ ارفعوا للناس مشاعل الاباء والشرف والقوة والعدل والشجاعة والثبات والامل والايمان .

١٥ ـ وقبل كل شيء وبعد كل شيء كفكفوا دموعكم كفكفوا دموعكم فالشمس لا تزال لكم والقمر لا يزال رفيقكم والربيع لا يخونكم .

واكاد اقول ان الشعر في المنطقة المحتلة من فلسطين انما هو تطبيق لهذه المبادىء ، فنحن نقرأ من خلاله لذلك صورة حية لواقع الحياة التي يحياها اخواننا هناك ونلمس التحديات التي تواجههم ونحس باحلامهم وامالهم وبالهواجس التي تراود افكارهم . فالشعر شعر ذاتي ولكنه صادق الى ابعد الحدود ولذلك فهو يكشف قضايا المجموع . لنأخذ الشاعر سالم جبران في قصيدته « حرمان » لنرى ان الذاتية والصدق قد بلغت حدا هناك يكاد يكون غريبا على الاسماع العربية . هذه القصيدة لا تصلح بالتأكيد لاعياد الام عندنا :

ملعونة امي ، فقد اعطت لغيري ثديها
يرضع منه ... وانا جوعان
ملعونة امي ،
فقد اعطت لغيري فرشتي
فلم انم .. لانني بردان .
ملعونة امي ،
فقد اعطت لغيري قلبها
فعشت لا اعرف ما الحنان
ملعونة امي

ملعونة امي

ملعونة لاجلها النسوان . !

لا ندري هنا ان كانت هذه الام هي امه الحقيقية ام هي استعارة يستعيرها الشاعر ليصف غربته .. تلك الغربة التي يحس بها كل انسان هناك وتزداد حدتها يوما بعد يوم كلما شعروا بضغط القوة التي تبعدهم عن امتهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم . وهذا الشاعر محمود درويش يستعيد ذكريات امته التاريخية فيرى في الغزاة الجدد صورة اخرى للروم وللصليبيين :

حملتك في دفاتري القديمه
نار اشعاري
وباسمك صحت في الوديان :
خيول الروم .. اعرفها
وان يتبدل الميدان !
خذوا حذرا ..
من البرق الذي صكته اغنيتي على الصوان !
انا زين الشباب .. وفارس الفرسان
انا ومحطم الاوثان !
حدود الشام ازرعها
قصائد نطلق العقبان !
وباسمك ، صحت بالاعداء
كلي لحمي اذا ما نمت يا ديدان
فبيض النمل لا يلد النسور
وبيضة الافعى
يخبىء قشرها ثعبان
خيول الروم اعرفها
واعرف قبلها اني
انا زين الشباب وفارس الفرسان .

ولقد يتساءل متسائل : وماذا تفعل الدولة هناك ازاء هذا الشعر الذي يشكل خطرا عليها ؟ لقد تحول الشعر العربي فعلا هناك الى سلاح من اقوى اسلحة المقاومة ومنه ما احدث ازمات لدى بعض الاحزاب . ان الدولة هناك تقاوم هذا الشعر ما وسعتها المقاومة ولكنها تدرك ان مقاومة الشعر امر صعب ، ولذلك فهي تعمل على امتصاص الشعراء ثقافيا فترصد الجوائز للمسابقات الادبية التي تنسجم وسياستها وتوظف الشعراء في وظائف لترجمة الشعر العبري والادب العبري الى العربية وتنزل لهم في العطاء لكي يصمتوا على الاقل . وهل يقبل الشعراء ذلك ؟ لقد قرأنا قبل فترة في الاخبار ان واحدا من هؤلاء الذين اضطروا الى قبول الوظيفة قد فر الى باريس . ولنقرأ ما يقوله الشاعر سميح القاسم عن الجذوة الشعرية التي يحاول اليهود اطفاءها او شراءها :

مستنقعات الصمت للديدان .. فليقنع بصمته
من باع للشيطان جذوته .. وخان عهود بيته
مستنقعات الصمت للديدان ..
والقمم العصيه
للشمس والبصر الجسور
فتهيئي للقائنا يا واحة الله القصيه
نبتت برغم الريح اجنحة النسور
وقلوبنا عادت غنيه
وجذورنا ظلت قويه

عدنا .. رجال الارض .. ان شحت وان كانت سخيه .

وبعد فلا بد من نظرات اخرى في هذا الشعر ولئن نجحت في القيام بمهمة التعريف فتلك خطوة لا بأس بها ولعلها تتلوها خطوات .

ابراهيم ابو ناب